المساواة

(٤)

الديمقراطية

استعرض ما شئت من فصول التاريخ الطبيعي تجد بين الحيوان والحيوان مصارعة مطردة وبين النبات والنبات مقاتلة سرية أو علنية بلا تباطوء ولا مهادنة . ومثلها في تاريخ علم طبقات الارض : فهنا الصخور والمعادن تتزايد وتتناقص، وهناك تراجعت الامواج وابتعدت في محيطها فاستحالت أرضٌ غارت تحت تقلب الاوادي مدينة آهلة . ومثلها في تاريخ الفلك حيث تتكونُ عوالم وتزول عوالم. وليس التاريخ البشري ليختلف عن تلك التواريخ . غير ان الانسان يمتاز على سائر الكائنات بالعقل والغريزة الاجتماعية ، فهو يطبعُ كلَّ ما يقتحمُ من خطرٍ وينشرُ من حرب ويركبُ من هولٍ بطابع هاتين الميزتين . ولما كان تنازع القوى الطبعية ينتهي دواماً بصعود الغالب وهبوط المغلوب كانت نُظُم الانسان ومبادئهُ واحزابهُ أبداً في ارتفاع وانخفاض . ولكن كما ان العلم على نموّهِ وتقدمهِ لم يعثر بعدُ على عنصرجديد ويرجع كلّ تنوع عنصري اليهِ. كذلك رغم الثورات والانقلابات لم يهتدِ زعماء الاصلاح الى انظمة سياسية غير الثلاثة التي ذكرها ارسطو وهي : الملكية أو حكومة الفرد ، والاستقراطية أو حكومة الاماثل، والديمقراطية او حكومة الشعب.ولئن دانت المدنية المتأخرة بالديمقراطية فان جلّ المدنيات المتقدمة — إن لم يكن كلها — نما وترعرع ثم توارى في حضن الملكية . ألأنّ الشعب الرازح تحت أثقال العبودية كان في غيابات جهلهِ مدفوناً؟ ألانّ تلك المدنيات شرقية وشعوب المنطقة الحارة أقربُ الى الملكية لميلهم الى عدم التفكّر وتثاقلهم عن حمل المسؤولية — كما زعم المؤرخون ؟ ألانّ الامة في دورها الابتدائي تحتاجُ الى سيدٍ احتياج الطفل والقاصر الى معلم ومرشد ؟ ليس البتُّ بالامر الميسور . وانما ما يتحتم البتّ فيهِ : بعد نظرةٍ سريعة في المدنيات البعيدة ، هو ان تلك الشعوب لم تكن عقيمة قاحلة في ظلّ الملكية بل انتجت ما لا نزال نستفيد منهُ حتى في عصور الابداع المتواصل هذه

فمدنية مصر العظيمة تكوَّنت في عهد ست وعشرين اسرة مالكة يوم كان فرعون سيداً مطلقاً يسنُّ القوانين وينفذها ، ويسهرُ على الراحة والامن ، ويسعى في تنظيم البلاد وتجميلها ، واليهِ مرجع الامور الدينية والمدنية جميعاً . فاسفرت تلك الحضارة السحيقة عما ما زلنا نعجبُ بهِ ونستوحيهِ من بدائع هندسية وفنون ادارية وفلسفة روحانية

أما الحضارة الكلدانية الاشورية فكانت عظيمة في هندستها عظمتها في علمها . لانها مع تلك الاسوار الضخمة والابنية الفخمة والحدائق المعلقة المعدودة من العجائب السبع في القدم — جاءت بفنون الحرب وما يتبعها من تدريب الجيوش وحفر الخنادق وخد الاراضي واختراع مركبات الهجوم والدفاع وأساليب التدمير النظامي واعدام الاسرى ونقل المعدات والاسلحة . هذا من جهة . وكانت عاكفة من جهة اخرى على التمرين العقلي والبحث الفكري فوضعت القواعد لعلوم الحساب والفلك ، واوجدت المكاييل والمقاييس والموازين الاولى ، وميزت بين السيارات والثوابت ، وأحصت كسوفات الشمس وخسوفات القمر ، وعينت دائرة البروج مسمية كلاً من علاماتها باسمها ، ووقتت اجزاء السنة واخترعت الساعة الشمسية . وهي التي وضعت ايضاً التنجيم وكشف طوالع السعد والنحس ، وتركيب التعازيم والتعاويذ والطلاسم والتمائم والحمائل وعقاقير الغرام

أما اليهود فمعروف مجدهم الحربي في عهد داود ومجدهم التجاري في عهد سليمان ، فضلاً عن انهم حبوا العالم بكتاب التوراة الجليل

واحدث الفينيقيون فنَّ سلك الابحر وما يقود اليهِ من استعمار وتجارة دولية وصناعة عدتْ تلك التجارة فانشأوا المصارف في الانحاء المختلفة واذاعوا مع مدنيتهم مدنية كل بلاد يرودونها ، ونشروا مع مصنوعاتهم الابجدية التي اختزلوها من الهيرغليفية وأساليب المعاملة المالية والاقتصادية وعلم مسك الدفاتر

ولما قام الفرس يسطون شوكتهم على العالم الشرقي ويخضعون الشعوب المغلوبة لصولجان ملكهم اقتبسوا عن الاقوام زبدة حضاراتهم فجمعوا بين الادارة المصرية والهندسة الاشورية والعلوم الكلدانية والحرية الفينيقية متوسعين في التصرّف والتأليف والتكييف ليصبغوا تلك المدنية المختلطة بصبغة فارسية . وقد بدأ بهم تأثير الآريين — وهم من اصل آريّ — في التاريخ المتداول .

وأخصّ ما جاءوا به حكمة زرادشت القائلة بحرب بين عنصر الخير اورمزد وعنصر الشر اريمان ، حرب تبقى الى منتهى الزمن حيث يتغلّبُ عنصر الخير فيعمّ النور والحقيقة

كذلك في الشرق الاقصى كالصين مثلاً حيث شيد السورُ الاكبر قبل المسيح باربعة قرون وحفرت الترعة الكبرى في القرن التاليمما يدل على تقدم الهندسة. وقد عرف ابناء مملكة « ابن السماء » علوماً وفنوناً جمة كالكتابة ومبادىء علم الهيئة ، واخترعوا الحك (البوصلة) والمطبعة والبارود ، وتعالت جدران معابدهم في الفضاء ، وكست الحرائرُ النفيسةُ الرجال منهم والنساء ،وشربوا الشاي في فناجين الصيني الثمين أيام كان الغرب في همجية قصوى . واذا اخذنا ببعض ما وصل الينا من كتاب كنفوشيوس المدعو « تشو — كنج » علمنا ان مبادئهم الاخلاقية من عبادة الآلهة وحبّ العائلة واحترام الموتى الخ . لا تقلّ جمالاً عن اسمى المبادىء المعروفة لدينا

وقد تأثرت اليابان في القرن الرابع ق . م . بمدنيتيّ الصين والهند كما تأثرت اوربا فيما بعد بمدينة اليونان واللاتين . وبعد جهاد عنيف بين المولى والاشراف يشبه جهاد الارستقراطية والملكية في القرون الوسطى اعتنق ذلك الشعب الشرقي المتوقد مدنية الغرب الحديثة بأكملها وصار ، وهو القزم في عالم القياس، يخطو خطوات جبار في عالم التقدم والرقيّ

كذلك كانت الملكية حسنة العائدة في القرون الوسطى مع شارلمان . واذا ماشيناها الى ايامنا مع بسمارك — وهو اكثر ملكية من الملك ، كما يقولون — ومع الامبراطور غليوم الثاني وجدنا ان المانيا في عهد هذه القيصرية الحربية المطلقة جرت خلال نصف قرن شوطاً أجفلت لهُ الدول قاطبةً

على ان بقع الظلام الواسعة تحاذي خيوط النور في تاريخ هاتيك المدنيات التي لم تكن تحسبُ لحياة الفرد حساباً ، وانما خلدت بعدها اسماء اشخاص اشتروا عظمتهم بدماء الجماعات وجثث العبيد

***

ثم حصحص بصيصُ الكرامة الانسانية في بلاد اليونان التي تناولت قبس

الحضارة من يد الفرس بعد ان تغلب ملتيادس على داريوس في مرج ماراثون وأغرق تمستوكليس اسطول العجم في خليج سلامين . فانشأ اليونان يكرّرون اصول تلك الحضارة وينقّرونها ويرتبونها ليوصلوها الى مستوى يرضي الذوق منهم والعقل وهم الفنانون والفلاسفة قبل كل شيء . فحبوا وطنهم في قرنين اثنين بصيغ جديدة في القانون والعلم والفنّ والفلسفة . وهناك أخذ الفرد يعرف حقوقهُ وواجباته . هناك اشرق فجر الديمقراطية ولم تكن الحروب المتتابعة لتُظلمهُ ، ولا زحف الرومان وظفرهم ليلاشيهُ ، بل ظلت اثينا المغلوبة مهذبة العالم

لم تقم في روما حكومة ديمقراطية محضة ، ويرى بوليبيس المؤرخ اليوناني ان النظام الروماني كان مزيجاً بديعاً من الملكية والارستقراطية والديمقراطية . غير ان العنصر الديمقراطي كان كبير النفوذ راجح الشوكة بعد ان صارع الطبقات العليا فتساوت جميع المراتب في الخضوع لسيد واحد هو قيصر . وكما كان العالم القديم شديد الاعجاب بمسألة الجيوش الرومانية كذلك كان الاعجاب بالوحدة الامبراطورية من الشدة بحيث بقيت تلك الوحدة مثلاً أعلى تنشدهُ الملوك في العصور التالية فاقام شارلمان دولتهُ على منوالها وطمع نبوليون في اعادتها الى الوجود بعد كرّ العصور

شطرت دولة الرومان في آخر القرن الرابع للمسيح شطرين : امبراطورية الغرب وعاصمتها روما ، وامبراطورية الشرق وعاصمتها بيزنطية (الاستانة اليوم) ولم يطل حتى تدفقت الشعوب الاسيوية واشتركت مع شعوب زحفت من اوربا الشرقية والمتوسطة ، فتبارى المغول والسلاف والجرمان في الاغارة على روما واكتساحها وايساعها تخريباً وتدميراً زمناً يناهزُ قرناً . وانشأوا بعدئذٍ يقتبسون عادات الامم المغلوبة وقوانينها فألّفوا من ذلك نظاماً قام عليهِ فيما بعد التشريع الاقطاعي

وتجاذبت السياسة في القرون الوسطى نزعتان : الوحدة الدولية أو المركزية ، والتخصيص القومي أو اللامركزية . فمن قائلٍ باخضاع الشعوب وتوحيد قيادتها كالامبراطورية الرومانية ، ومن قائل بتوزيع القيادة واطلاق كلّ أمة تنظرُ في امورها وتنمي مدنيتها وفقاً لمطالبها القومية وممكناتها الطبيعية . فتغلّبت النزعة

الاولى بصيرورة شارلمان امبراطوراً على الغرب ، وهو الذي عهد الى الاشراف بادارة المقاطعات تحت مراقبة مفتشين اختصاصيين — على ان يكون اليه مرجع الاحكام جميعاً حتى في الامور الدينية . وسادت بعد ذلك النزعة الاخرى يوم تقاسم الدولة أحفادهُ الثلاثة في معاهدة فردون (في منتصف القرن التاسع) التي أوجدت كلاً من ممالك فرنسا والمانيا وايطاليا ذات كيان سياسيّ مستقلّ . ثم تناولها النظام الاقطاعي في القرن العاشر فظلت الى القرن الثاني عشر عجاجة دويلات وامارات ودوقيات وكونتيات لا عداد لها، وبين صاحب الارض والرقيق تبادل حقوق وواجبات تتنوّع بتنوّع الطبائع الشخصية والعادات المحلية . والمرجع النهائي الى الملك الذي لم تقم فوق ارادته غير ارادة الله

وكان حجر الزاوية في صرح تحرير الامم الحديثة تلك البراءة الملكية التي نالها الانجليز من ملكهم في مطلع القرن الثالث عشر وقد منحتهم مبادىء الحرية الدستورية التي ستتكيف الاحوال منذ الآن فصاعداً لتنشرها في جميع أقطار الغرب .من تلك الاحوال ان البرابرة عادوا الى التفجر من مجاهلهم كما فعلوا منذ عشرة قرون فتدفقت سيولهم الفياضة على الشرق والغرب ، واكتسح التركُ الدولة البزنطية فيما اكتسحوا — تلك الدولة التي كان لجأ اليها اسمى عناصر الدولة الرومانية المقهورة وأجلها . ومن هذه الكارثة العالمية الكبرى ، ومن اختلاط الشعوب وامتزاج المدنيات تكوّنت حضارة جديدة تزدهر على الاطلال والانقاض كما تنبت الازهار النضرة في ميادين القتال وعند زوايا القبور. ذاك ان البزنطيين عادوا بكنوزهم الفكرية والفنية الى ايطاليا فالقوا فيها شرارة ما لبثت ان شبت ناراً امتدت منها اللهب في انحاء الغرب فخلقت فيه حياة جديدة وروحاً جديداً — وذلك هو عهد الانبعاث او النهضة

انتعشت الفنون والآداب وتنوّرت الافكار، وتقدمت العلوم ، واكتشف كولمبس القارة الامريكية فلمحت العقول من العالم صورة غير التي رسخت فيها ، والتفت الناس الى كرامة الفرد واهليته ،واخذ الاجتماع الحديث يتمخض بمبادىء تنافي مبادىء الاجتماع القديم. وشفعت هذه وغيرها من «عناصر النهضة» بثورة دينية بدأت في المانيا بزعامة لوثر . وكانت تلك الثورة ابنة النهضة الفكرية

وخليفتها الا انهما افترقتا بعد حين وتقلقل الاصلاح الديني حيث لم تفلح النهضة فكثر اتباعهُ في المانيا وسويسرا وفرنسا واسكتلندا وانجلترا . ولئن انتج معارك دموية فظيعة فقد ساعد في تحرير الفكر لانهُ اطلقهُ من القيود الدهرية وأظهر إمكان النقد للفلسفة الدينية فمست بذلك قيمة الايمان نفسه لان ايماناً يمتن ويرسخ بعد الامتحان بمحك النقد العلميّ خيرٌ من ايمانٍ قوامُهُ الجهل والوهم والتسليم . واختراع المطبعة وسهولة الطباعة جعلا اذاعة الآراء ميسورة بين أهل البلد الواحد وشعوب البلاد الاخرى

وبينا نظام الاقطاع يسود في المانيا وغيرها من بلاد الغرب ، وبطرس الاكبر وخليفتهُ كاترينا العظيمة يحوّلان الروسيا من مملكة شرقية الى امبراطورية ذات صفة غربية — اذا بسويسرا عاكفةٌ على تحسين نظامها الجمهوري الذي ساعدها بعدئذٍ نابوليون على التمتع بهِ في اكمل حالاتهِ . واذا بانجلترا تعدّل دستورها وتخطو بهِ خطوة جديدة في ربوع الحرية ، فلم تنجح في ثورة ١٦٤٨ ولكنها نجحت سنة ١٦٨٨ دون هدر قطرة دم واحدة . وانتهت مع استبداد الملكية بدعوى الحقوق الالهية ، المناقشات السياسية جميعاً ، وتفرّغت للشؤون الخارجية فاقامت هذه الامبراطورية التي لا مثيل لها في التاريخ المشوب سائرة في مقدمة دول تنيرها بقبس دستورها ويقد الفلاسفة والمصلحون للاستقاء من منهل حريتها. واذا بفرنسا تفوز بالوحدة الوطنية في عهد لويس الرابع عشر . الا ان الاهالي في استياء من ثلاثة اقسام الامة : قسم الاكليروس ، وقسم الاشراف وقسم غير الاشراف . في استياء لان هناك جماعة تتمتع بجميع الامتيازات ولا تحمل مسؤولية ، واخرى ترهقها المسؤولية ويسخطها الكدح المتتابع ، وتثقل كاهلها الضرائب . وليس يتساوى الجماعتان في غير الرضوخ لارادة الملك

لم تطل الحال . بل انبثق فجر آراء جديدة في التساهل والمساواة بفضل الفلاسفة والاقتصاديين والانسكلوبيذيين ، وظلت هذه الآراء كالشرارة تدنو من بارود السخط العام الذي دوى قاصفاً في الثورة الفرنسية يوم أُعلنت «حقوق الانسان» لازالة ما بين البشر من حدود وفوارق وتقرّرت سراية القانون عليهم جميعاً من غير ما جور او تحيز ، مؤهلين لتقلد وظائف الحكم والتشريع

والقضاء وفقاً للكفاءة منهم والمقدرة . فاذا صحّ ان فرنسا درست الحرية على انجلترا فانها مع اميركا أشبعت العالم بفكرة الحرية فتبعت الدول آثارها تدريجاً . لانهُ وان قال ارسطو بصنوف دمقراطية جمة فالدمقراطية وكل نظام آخر يتغير بتغير طبيعة بلادٍ ينفذ فيها . ولقد جاهد الغرب حتى صحّ القول انهُ بعد إعدام قيصر روسيا وانهيار عرش المانيا والنمسا لم يبقَ في أنحائه ملكية مطلقة واحدة وان الدمقراطية عمت العالم المتمدن . وان لم تكن البلاد جمهورية كاميركا فهي ممالك دستورية كايطاليا واسبانيا الخ. ولا يعلم الا الله ما يختفي وراء تلك العروش المترنحة من دسائس البلشفية وقنابل الفوضوية ومدمرات الشيوعية

***

فاذا كانت الدمقراطية هي حكم الشعب وتسوية الحقوق والواجبات بين افراده فلا مناص مما يحمل الجماعة على المطالبة بهذه التسوية وذاك الحكم . فأيُّ محرك يا ترى بعث على حذف الملكية والارستقراطية واحلال الدساتير الدمقراطية محلها ؟ نعم ان بين القوى الانسانية ترابطاً متيناً وائتلافاً تاماً بحيث ان التيقظ اذا بدا في قوةٍ لا يلبث ان يمتد فيتناول القوى جميعاً . على ان هذا لا ينفي ان لكل حركةٍ باعثاً رئيسياً تتفرع منهُ بواعث جمة . ففي الماضي كان الجيش اليوناني يتألف من الاشراف الذين لم يكونوا ينازلون العدوّ الا على الخيل او في المركبات وقد لاحظ ارسطو ان جيشاً يرجح فيهِ الفرسان لجيشُ حكومةٍ ارستقراطية . ولكن الحروب المتزايدة في الداخل والخارج ثلمت صفوف الفرسان ازاء مهاجم عتيّ . فأرغم الاشراف على تعزيز الجيش بفيالق المشاة من الشعب ، وامدادها بالسلاح والمعدات ، وتدريبها على القتال والدفاع. فشعر هؤلاء بضرورتهم لحفظ كيان الوطن وانبروا يبثون في البلاد الثورة والشقاق حتى ظفروا بالمساواة المدنية والسياسية . كذلك في روما التي لم يكن لها من شاغل سوى الفتح والاستعمار واشرافها يربأون بأنفسهم عن التجارة والصناعة والفلاحة وغيرها مما أقبل عليهِ الشعب الى ان اصبح صاحب الثروة . وترامي اطراف الامبراطورية واحتياجها الشديد الى زيادة جيوشها البرية والبحرية اوجب ضم الشعب الى صفوف الفاتحين والمحاربين ، ومنحهُ من الامتيازات ما لم يطل ان تمتعت بهِ الامة

جيماً . فصار لها مجلس نيابيّ يتكلم بصوتها وانقسمت الامبراطورية الى حزبين حزب الاشراف وحزب الشعب كما يوجد في عصرنا الرأسماليون والعمال . فكان إن استأثر مجلس الاشراف برأي امتنع مجلس الشعب عن التصويت ورفض مساعدتهُ لتتميم الاعمال — وفي ذلك صورة للاضراب في هذا العصر . ولم يوفق بين الحزبين الاّ بعد قرن ونصف قرن اذ تنازل الاشراف عن الامتيازات السياسية اولاً والدينية بالتالي — لان الوظائف الدينية كانت سياسية ايضاً

اشتراك الشعب في الحرب هو اذن مصدر الديمقراطية القديمة . واما الحديثة فمصدرها اثنان متلازمان هما : اولاً — الاختراعات والاكتشافات العلمية . وثانياً — تعميم المعرفة وسهولة التعليم . فقطن الذين كانوا بالامس يذعنون غير متذمرين ، وربما مسرورين شاكرين — فطنوا الى اهمية عملهم في هذه الاساطيل التي تمخر البحار وتدني ما شسع من الامصار ، وتلك السكك الحديدية التي تشق الاطواد وتطوي القفار وتطوّق الكرة بنطاق مكين ، وجميع الآلات البخارية والكهربائية والهوائية التي تفيض على العالم النضار وما يمثلهُ من ثروة وتحبو الناس باسباب الرغد والهناء . وبينا الثروات الباهظة تقيم السدود بينها وبين الفقر المدقع اذا بالمعرفة تزيل الفروق وتقرّب بين الطبقات . فتنبهت الاطماع العامة واحدثت في النفوس غليانا أثارها على التقاليد الموروثة ، ونادت بالديمقراطية ملخصةً مطالبها في بندين جوهريين احدهما سياسي والآخر اجتماعي . وهما : ان الديمقراطية قائمة على اكثرية العدد التي يستمد منها القانون قوتهُ . وانها تقضي بحذف الفروق الاجتماعية او على الاقل بتحويلها الى اقلها ليعطى لافراد كل جيل امكاناً متماثلاً به ينمون مواهبهم ويظهرونها بلا ضغط او مقاومة

ولقد لمست موجة الديمقراطية شواطىء الشرق الادنى واول من هتف بها في مصر لطفي بك السيد يوم كان الفاهمون قليلاً يطلقون عليهِ مزاحاً لقب « الفيلسوف الديمقراطي » . ولم تقف المسئلة عند حدّ المزاح بل هو لاق من اعتناق الافكار الحديثة مصائب واحتمل سخافات مؤلمة . منها انهُ يوم كان مرشحاً لعضوية الجمعية التشريعية سنة ١٩١٤ حاربهُ احد مزاحميهِ بما لو فهمهُ القوم لكان للطفي بك لا لخصمهِ ، حجةً . قال الخصم : « يبقى نائب عنها ازّاي ؟ دا راجل

دعقراطي ! » فارعبت الناجين هذه الكلمة الاعجمية المستهجنة واوّلوا معناها باسوأ ما يتوهمون . بيد ان التغير ناموس الكون . ولم تمض خمسة اعوام حتى صار لمصر الفتاة حزب يُدعى « الحزب الديمقراطي المصري » تنتسب اليه فئة من ارق الشبان المتعلمين في اوربا العائدين من مدارسها العالية بمعتبر الشهادات ومحترم الالقاب . وهنا الوقائع التاريخية تقضي بالاعتراف ان اسم الديمقراطية جديد في هذه البلاد ولكن معناها غير جديد . لان الاسلام كان ابداً ديمقراطيَّ المبادىء ديمقراطيَّ الاساليب . وهل من ديمقراطية اتمّ من ان نرى الملوك يتخذون لهم من الجواري زوجات شرعيات ويرفعونهنّ الى مراتب الملكات ؟ أوَهل من ديمقراطية اوفى من ان يخرج من الطبقة الدنيا قوم يرتفعون بكفاءتهم الشخصية ورجاحة عقولهم الى اعلى المراتب فيحملون اعظم الالقاب ويتقلدون اجلّ الوظائف ؟ ولكن على مقربة من هذا التساهل والانصاف تقوم ارستقراطية مزدوجة : لان موقف الاجير المصري ازاء صاحب الارض يكاد يكون ، مع موقف العامل المصري ازاء المموّل ، موقف الرقيق ازاء الشريف في نظام الاقطاع . وكانت الحال على ذلك في سوريا وفلسطين حتى الحرب العظمى . اما في لبنان فالديمقراطية تسري منذ ان حُرِّر النظام الاساسي في سنة الستين

وليس هو الاسلام وحدهُ ، وانما قالت بالمساواة قبلهُ البوذية والنصرانية . على ان مؤسسي هذه الاديان جاؤا باستثناء واستدراك اذ ذكر بوذا التناسخ وان من البشر من هم (بذلك التناسخ) أكبر سناً واعظم فضلاً واوفر طهراً . وقال السيد المسيح « المدعوون كثيرون والمختارون قليلون » . وجاهر النبيُّ العربيُّ بانّ الله يهدي من يشاء. وكيف لا يرى هؤلاء المشرفون على جميع اسرار النفوس فروقاً اساسية تفصل بين الناس — بين اولئك الذين تجمعهم جامعة الروح العليا؟ فقامت السياسة تؤيد ما لم تفلح في توطيده الاديان ولا فازت بتثبيته حضارة اليونان والرومان

واما الفرق بين الماضي والحاضر فهو ان الديمقراطية القديمة قامت على العبودية وظلّت الطبقة السفلى مسخَّرة للاعمال الدنيا والخدمة لتتفرغ الطبقات العليا للحكم والقضاء . كان الفرد ينتمي ابداً الى سيد او قبيلة او عشيرة (على ما نرى اليوم

بين الاعراب اهل البادية وسكان الريف) ؛ فيفاخر بقوله « نحن » كان لا راي لهُ ولا قيمة في ذاتهِ منفصلاً عن جماعتهِ . على نقيض هذا العصر وفخر الفرد فيهِ ان يقول « انا » وان يكون قيّماً في نفسهِ مجرّداً عن ايّ احد وايّاً كان حسبهُ ونسبهُ . الفرد اليوم يقوم مقام المجموع وليست نقابات العمال وشركات التعاون لتثبت غير ذلك . الواحد للكلّ ، نعم ؛ ولكن على شريطة ان يكون الكلّ للواحد . وهي ميزة تفرّد فيها هذا العصر ولم تُعهَد من قبل . ولئن قبلناها من غير دهشة فلاننا نحياها . اما مؤرخو المستقبل فسيتخذونها محور ابحاثهم ويرون فيها ما لا بدّ ان تكونهُ : فاتحة عهد جديد

***

وبعد كل هذه الحرية وكل هذا التقدم ترى هل حصل الفرد على السعادة المنشودة وهل تم للمجموع السلام والهناء ؟ هل جاءت الديمقراطية بكل ما يُنتظر منها ؟

هناك ميزة تلازم ميزة « الفردية » العصرية وهي طلب التوسع والاستعباد على الطرز الحديث . مفهوم ان الامم الكبيرة تقول برغبتها في انهاض الامم الصغيرة من جهلها وخمولها وتسيرها في موكب الحضارة العظيم واياها جنباً الى جنب . ولكنهُ مفهوم ايضاً ان تلك الكلمات هي اسلوب من اساليب الافصاح السياسي وان تلك الامم لاخلاص لها مع هذا التزاحم الدوليّ والازمات الاقتصادية في غير استغلال المستعمرات وتصريف تجارتها فيها . وما استعدت المانيا نصف قرن وفاجأت — او زعموا انها فاجأت — اوربا بالحرب الضروس الاّ توصلاً الى انتزاع ما يمكن انتزاعهُ من عدو حسبت اندحارهُ امراً واقعياً . ولكن المانيا هي التي اندحرت ... ولو الى حين . والشعوب المرجوّ استغلالها واستنتاج اراضيها بدأت تتحرك وتأبى ان تستعمر وتستغل . ناهيك عن الخطر الاصفر الذي اكتسح الغرب مرتين في مطلع القرون الوسطى وفي آخرها وطالما تخوّفتهُ اوربا قبل الحرب الكبرى وما زالت تخشى منهُ اغارةً جديدة تجيء اشدّ هولاً وابطش فتكاً

هذه مظاهر الديمقراطية في الخارج وما حال تلك الحكومات في داخلها ؟ ايّ صنوف المساواة يسري بين مراتبها الاجتماعية وبين افرادها ؟ ازالت الفروق

من بينها ولم يعد فيها صغير او حقير ؟ يخيل الينا ان اقرب الامم الى الديمقراطية هي الامة الامريكية لقلة ما وراءها من التقاليد. فهل حالت المساواة دون ما يقابل به البيض السود من ازورار واحتقار ؟ هل حالت الحرية والمساواة دون هدر الدماء والتشنيع والتفاضل ؟ ان تلك القدر الهائلة التي تغلي فيها جميع عناصر الدنيا ما زالت تقول بفروق الجنسية بالفعل وان نفتها بالكلام وما زالت تأبه لفروق الثروة والذكاء والعلم والتربية . بل ما زالت الاعتقادات علاماً مختلفين ، وتتعدد الاحزاب بتنعم عجالسهم ، وقرب ثروتهم القارونية نرى العوز الاقصى والحرمان الوجيع . فاذا كانت الديمقراطية الدواء الناجع فما هذا الذي نسمعه من صخب الشكاية والتهديد ؟ ما هذه البراكين الثائرة ضمن الانظمة المساواة التي سنت بدماء الانام ؟ وما بال موقف العمال ازاء اصحاب الاموال يشبه موقف الشعب ازاء الارستقراطية في القرن الماضي ؟

سئل صالون الشارع اليوناني يوم وضع اسس الديمقراطية « اتظن انك اعطيت اهل اثينا احسن نظام ممكن ؟ » فاجاب « بل اعطيتهم احسن نظام يوافقهم » . وقيل انهُ لم يكن يطمع في تعوذ نظامه اكثر من مائة عام . وقال آخرون بل كان يتوقع تغييرهُ بعد عشرة اعوام . ويحسب صولون من حكماء اليونان السبعة فلا عجب اذا هو لم يثق من دوام القانون لانهُ يعلم ، وهو الحكيم ، ان طبيعة الانسان فرداً كان او جماعة ، متبدلة متحولة متكيفة مع الاحوال وان القوانين توضع للافراد وليست الافراد موضوعة للقوانين

وازاء حركات الدول في داخلها وفي خارجها ، ازاء حرب الاحزاب وصخط المراتب وتربص الطبقات ، ازاء حاجة المدنية واتناجها وما تفنيهِ من جديد وتحييهِ من قديم ، ازاء الفروق الجوهرية والكره الطبيعيّ وضرورة الحرب والمناضلة يقف المفكر متأملاً . واذ تتعالى اليهِ اصوات الهاتفين وضجيج الغاضبين ترتسم في الفضاء امامهُ صور الشارعين يكتبون الانظمة ويسنّون القوانين متفائلين مستبشرين فينظر اليهم صامتاً وفي نظره هذا السؤال الذي لا جواب عليهِ : « اين المساواة التي تدّعون ؟ » (مي)